الأدب والمعرفة

- ١ -

أين يقع الأدب في كتاب المعرفة؟ هل يشغل شيئًا من صفحاته أو هوامشه، أو أنه بنية «عاطفية» بعيدة بطبيعتها عن أبواب المعرفة العقلية ؟

تثور هذه الأسئلة وأمثالها في الأذهان بين الحين والآخر كلما دار الحديث حول مفهوم الأدب وأثره في حياة الأفراد والمجتمعات، كما تظهر عند البحث في أبعاد المعرفة، وجوانبها المختلفة. ويهم دارس الأدب - كما يهم دارس المعرفة - أن يصل إلى جواب موضوعي يفصل في العلاقة بينهما، وهذا ما آثرت أن أقدم به بحثي.

- ٢ -

ثمة طرق كثيرة لبحث العلاقة بين الأدب والمعرفة، ولعل أنسبها لدارس الأدب هي الطريق التي تنطلق من البحث في طبيعة الأدب ووظيفته وتنتهي إلى كشف خيوط المعرفة في العمل الأدبي، وهو ما سأسلكه في الفقرات القادمة.

سعى الباحثون - منذ القديم - لمعرفة طبيعة الأدب، وكانت وسيلتهم المفضلة تعريف الأدب، لأن التعريف «الجامع المانع» يضع الخصائص والصفات في دائرة الضوء ويكشف العلاقات القائمة بينه وبين النشاطات الإنسانية الأخرى.

غير أن النظرة التجزيئية التي غلبت عليهم - يونانيين وعربا على حد سواء - جعلتهم ينظرون إلى الأدب من خلال أجناسه المتفرقة، ويعرّفون كل جنس على حدة دون أن يجمعوا هذه الأجناس في نظرة شمولية متكاملة، على الرغم من إدراكهم الوثيق للعلاقات الحميمة بينها[١].

ويبدو من جملة تعريفاتهم أنهم يعدون الأجناس الأدبية إبداعات إنسانية تحمل قضايا من حياة الإنسان ومعتقداته، وتعرض مشكلاته الحساسة، وبحثه الملهوف عن حلول مقنعة لها، وإحساساته التي تصاحب المشكلات وحلولها.

وتعد التعريفات اليونانية أقدم تعريفات مدونة وصلتنا، وأكثرها تأثيرًا في المفهومات الأوربية للأدب طوال العصور الماضية، وأشهر هذه التعريفات تعريفات أفلاطون وأرسطو.

فالخطابة عند أفلاطون هي طريق الوصول إلى المعرفة أو تشخيص هذه المعرفة [٢]. وقد أخذ أرسطو هذا المفهوم من أفلاطون ووسعه وكتب كتابًا خاصًّا عن الخطابة، وقرر أنها تؤدي إلى غاية خلقية فنية، وتعين على إقرار الحق والعدل بتزويد الخطباء بوسائل البراهين الصحيحة[٣]. والشعر عند أرسطو محاكاة لأفعال الناس: خيرها وشرها، فمنه ما يحاكي النواحي الفاضلة المحمودة ويظهر المواقف التي يبدو فيها نبل الإنسان وأعماله الخيرة، كالمدائح والملحمة والمأساة «التراجيديا»، ومنه ما يظهر المواقف المرذولة كالهجاء والملهاة «الكوميديا»[٤].

أما العرب الجاهليون فكان الشعر ديوانهم الأكبر [٥]، وخزانة علمهم ومعارفهم، شغلوا بإبداعه وروايته عن تعريفه ودراسته، وكانت الخطابة قسيمة الشعر في الممارسة الواقعية للأدب، تنقل الحكمة والخبرة والقضية المهمة من الخطيب إلى الآخرين، وتقوم بدور كبير في الصلح بين الأفراد والقبائل وفي تحمل الديات والمفاخرات والمحالفات. . .

وكان الشعر مقدما على الخطابة، وعندما تكسب الشعراء بشعرهم تقدمت الخطابة وارتبطت بالزعامة والأحداث الكبيرة.

وعندما انتقل العرب - في ظل الإسلام - إلى الحضارة وتدوين المعارف عرّفوا الشعر تعريفات شتى لا تخرج عن كونه أداة فنية تنقل المعرفة والعاطفة من الشاعر الذي يفترض فيه الخبرة والحس المرهف إلى المتلقي، كقول قدامة ابن جعفر المشهور: « الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى » (٦)، وقول الباقلاني: «تصوير ما في النفس للغير» (٧)، وقول ابن خلدون: «هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف (٨).

وقد أضاف ابن رشيق إلى التعريف توضيحًا يبين دور الخبرة الجديدة والعاطفة في الشعر والشاعر، فقال في معرض حديثه عن مصطلح الشاعر: «وإنما سمي الشاعر شاعرًا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره. فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص فيما أطاله سواء من الألفاظ أو صرف معنى من وجه إلى وجه كان اسم الشاعر عليه مجازًا، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير» (٩).

- ٤ -

وخلال رحلة الأدب في العصور الماضية قامت أجناسه الشعرية والنثرية بدور كبير في إبداع جوانب من المعرفة الإنسانية، ونقلتها - ممزوجة بالشعور الفردي المتوهج - إلى الأجيال المتوالية، وقدمت صورًا رائعة لمواقف الأفراد والأمم، ومشاعرهم المختلفة: الحب والكره والسرور والغضب والغيرة والحقد... إلخ، وحملت قضايا فكرية وعقدية مهمة كقضايا الموت والحياة والألوهية والقدر والعلاقة بين الإنسان والله، والعلاقة بين الإنسان والإنسان، وقضايا الغيبيات، وقضايا الواقع والحياة. ويعد المسرح اليوناني أوسع ميدان للقضايا العقدية وما يرتبط بها من قضايا فكرية وفلسفية، وما زالت آثارها في الأدب وفي الفكر حتى وقتنا المعاصر (١٠).

وأما الأدب العربي القديم فقد حمل قضايا عقدية وفكرية كثيرة، بل حمل فلسفات وتطلعات خاصة في قضايا الحياة والغيب على نحو ما تجده في شعر المتنبي وأبي العلاء المعري، والحلاج، وابن عربي، وفي قصص ابن سينا، وابن طفيل، والسهروردي، وكان بعضها يصدر عن منابع إسلامية صافية، وبعضها الآخر يتأثر بمصادر هندية أو يونانية تحدث اضطرابات شديدة في التصور والرؤية.

إضافة إلى ما سبق حمل الأدب قضايا الحياة السياسية والاجتماعية، أما القضايا السياسية فيكفي أن نشير إلى بعض الجوانب في الشعر العربي القديم لنستدل بها على انغماسه في الوظيفة السياسية وارتباطاتها، فقد اشتغل الشعر بأول صراع قام حول الخلافة، وجسد آراء الأحزاب المتصارعة على اختلافها وتضادها [١١]. واشتغل بالصدام الطويل بين المسلمين والروم على الثغور[١٢]، ثم بالمعارك مع الصليبيين والمغول في الشرق [١٣]، والنصارى في الأندلس[١٤]، وكان وسيلة إعلام فعالة تنقل الخبر الموجه، ووجهة النظر، وتسجل الأحداث وترويها مصحوبة بعواطف فياضة.

ولم يكن دور الأدب إيجابيًّا في كل الحالات، بل كان له دور سلبي استطاع فيه أن يشوه الحقيقة التاريخية، ويسيء إلى شخصيات عرفت بصلاحها وتأثيرها الإيجابي في أحداث التاريخ. وأبرز شاهدين لذلك الصورة الشوهاء التي صنعتها قصائد المتنبي لكافور الأخشيدى[١٥]، والصورة الكاريكاتورية العجيبة التي رسمتها قصص الأسعد بن مماتي لبهاء الدين قراقوش[١٦].

أما الوظيفة الاجتماعية فلم تكن في الأدب العربي القديم في حجم الوظائف الأخرى، غير أنها لم تغب عنه قط؛ فقد صور الأدباء - في معرض حديثهم عن موضوعات أخرى - جوانب الحياة الاجتماعية وبعض مشكلاتها، فحمل

الشعـر الجاهلي بعض قلق الفرد وضيقـه بـالاضطرابـات والحروب الدائمـة بين القبائل[١٧]، وكـان شعـر بعض الصعـاليك - كشعر عـروة بن الـورد - ثـورة اجتماعية على سلبيـات النظام القبلي، وتطلعًـا مبكرًا إلى نظـام سديـد للتعايش والتكافل الاجتماعي[١٨]. وقد ظهـرت في العصر العباسي نماذج شعريـة للنقد الاجتماعي في شعر أبي العتـاهية وابن الرومي وأبي العـلاء المعري[١٩]... إلخ، تندد بـالفساد والفـوضى واضطـرابات العـلاقات الإنسـانية. وفي ميـدان النثر كانت بعض المقامـات والرسائل الأدبية سجلا للقضـايا الاجتماعية التي تضغط على الفرد والمجتمع منذ القرن الرابع الهجري إلى مشارف العصر الحديث[٢٠].

غير أن المهمة «المعـرفية» الكبيرة التـي قام بها الأدب هي الـوظيفة التربـوية، فقـد كانت نصـوصه الشعـرية والنثـرية هي الـدرس الأول والأهم عند العـرب الجاهليين؛ لكونها علما لم يكن للعـرب علم أصح منه، ولأنها المستـودع الثقافي الهائل الـذي يختـزن خبراتهم وحكمتهم وأخبـارهم. وطبيعي أن ينشأ عليهـا الفتيان، ويصقلوا بها قدراتهم اللغوية والفنية.

وقد ظلت هذه الـوظيفة قائمة في ظل الإسـلام، ولكنها تراجعت إلى الصف التالي بعـد القرآن والحديث، فقد كتب عمـر بن الخطاب ـ رضي الله عنـه ـ إلى أبي مـوسى الأشعري يقـول: مر من قبلـك بتعلم الشعر، فإنـه يدل على معـاني الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب[٢١].

هـذه القضايـا والوظـائف والصور. تـدل جميعها على أن الأدب - الشعـر والنثر - كان أداة نقل الخبرة والإحساس بين أفـراد المجتمع، بل بين أنحاء العالم الإسلامي وأجيـاله المتعاقبـة، وأنه باب مهم في كتاب المعـرفة. وقد قـالت عنه دائرة المعارف الإسلاميـة بحق: إنه «يدل على جملة المعارف التي تسمـو بالذهن والتي تبدو أكثر صلاحية في تحسين العلاقات الاجتماعية»[٢٢].

وفي العصر الحديث بـرز مصطلح «الأدب» ليـدل على التعبير الجميل عن تجربة شعوريـة، وليشمل أجناسه المتفـرقة، ويظهر الخصائص العـامة المشتركة بينهـا. وقد استخـدمه الـدارسون والنقـاد والمربون بهذه الـدلالة، واختلفـوا في شمـولـه أعمالاً لم تكن تحسب منـه في العصـور الماضية، كـالتـاريخ والقـانـون والكتابات العلميـة ذات الأسلوب المشرق[٢٣]، وظهرت علوم جـديدة تنسب إليـه كتـاريخ الأدب المقـارن والنقـد الأدبي، وشـاع مصطلحـه، ونشأت مصطلحات كثيرة تـرتبط به كـالمذاهب الأدبية والمدارس الأدبيـة وأدب الأطفال ونظرية الأدب ... إلخ

وقـد شهـد العصر الحديث تطـورًا في الأجناس الأدبيـة، فضعفت الخطـابـة واختفت المقامة وتأخرت مرتبة الشعر، وظهرت القصة والمسرحية وانتشرتا بسرعة فـائقة. ولئن كـان للقصـة جـذور تراثيـة[٢٤] فإنها قـد تغربـت عن جذورهـا واتصلت بالجذور الغـربية خلال وقت قصير، أما المسرحية فليـس لها أية جذور في تراثنـا العربي[٢٥]، وقد أدخلها مـارون النقاش وتلاميذه نقـلا عن الإيطالية والفرنسية والإنكليـزية[٢٦]، ولكن سرعان مـا اجتذب هذان الجنسـان الأدبيان جماهير واسعـة، وزاحما الشعـر ونجحـا في زحـزحتـه عن الصـدارة وتأخيره إلى الصفـوف الخلفية، ويكفي أن ننظـر إلى واجهة أي من المكتبـات أو نقرأ أرقـام الطبع لنرى أن كل ديوان من الشعر يقابله عشر قصص أو مسرحيات مترجمة أو مؤلفة.

وقد ساعد التطور التقني هذين اللونين على التطور والتقدم، فظهور الإذاعة والسينما والتلفزيـون، وحاجتهـا الكبيرة إلى نصوص قصصيـة ومسرحية جعلت القصة والمسرحية خبرًا يـوميًّا يبحث عنه المنتجون والمخرجون، ويـدفعون بسخاء

للمـــؤلفين، والمترجمين بينما لم يجد الشعـــر أكثـــر من تشجيع واهٍ مـن بعض المجلات الأدبية، ومن خلال جوائز الدولة السنوية.

والجديـد في الأدب الحديث عـامـة هو أن الجانب الفكـري قـد تضخم فيـه وأصبح عنصرًا مهمًّا من عنـاصره، فالشعـر الغنائي - الـذي يعتمد أسـاسًا على العـاطفـة والخيـال - تحول في نسبـة كبيرة منـه إلى معـرض للقضـايـا الفكـريـة والعقديـة. أما القصـة والمسرحية فقـد سبقتا في احتـواء القضايـا الفكريـة وفي عـرض الموضوعـات الاجتماعية والسيـاسية والعقـدية بأسـاليب ووجهات نظـر مختلفة، وأصبحت هذه الأجناس مادة من مواد المعرفة المهمة تتعامل مع الماضي بالقصص والمسرحيات التاريخية، ومع الحاضر بالقصائد والمسرحيات الواقعية، وترنو إلى المستقبل عبر التطلعات والتنبؤات والدعوات الكثيرة التي تحملها.

ونظرًا لما تحملـه الوظيفة «المعـرفية» الواسعـة للأدب الحديث من آثـار سلبية وإيجابية على القيم الإسـلامية والمجتمع المسلم فإنني أتـرك الحديث المفصل عن جـــوانب المعـــرفـة في الأدب الحديـث، وأقتصر على هـذه الآثـــار في الفصلين القادمين، ولكننـا نستبق القول هنـا لنؤكـد أن العمل الأدبي في العصر الحديث أصبح شكلا فنيًّـا ينقل الخبرة والمتعة في آن واحـد، ويتسلح بقوة هائلـة لإقناع المتلقي والتسلل إلى قلبـه وعقلـه، لتكوين مفهـومـات واقتنـاعات خـاصـة في أعماقـه، وأصبح من اليسير أن نضع الأدب في كتـاب المعرفـة الإسـلامية سـواء بسبب ما يحمله من قضايـا وأفكار، أو بسبب تعامله الكثيف مع الجماهير بكل مستـويـاتها الثقـافيـة، وعبر الكتـــاب المطبـوع والصحيفـة والمجلـة والإذاعـة والتلفزيون والسينما والأشرطة المسموعة والمرئية.

الهوامش

(١) يؤكد هذا الإدراك المقارنات التي عقدوها بين الأجناس الأدبية المختلفة، ولا سيما المقارنات بين الشعر الملحمي والشعر المسرحي، أو بين الشعر والخطابة، وتعد مقارنات أرسطو من أشهر المقارنات القديمة بين الأجناس الأدبية.

انظر نموذجًا لها في كتاب: فن الشعر ص ١٣٤-١٥٦ تحقيق د. شكرى عياد، ط: الكتاب العربي بمصر ١٩٦٧م.

وانظر نموذجًا لآراء الباحثين العرب في كتاب ابن طباطبا العلوى: عيار الشعر ص ٧٨ تحقيق طه الحاجرى وزغلول سلام، القاهرة ١٩٥٦م.

أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٣٢، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة ١٩٣٩م.

(٢) انظر: د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ص ٢٩، دار نهضة مصر د. ت.

(٣) السابق ص ٩٣.

(٤) انظر: فن الشعر ص٣٢.

(٥) انظر: ابن سلام الجمحى، طبقات فحول الشعراء ص ٩٧، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف بمصر، وابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده ١/ ١٤١ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٦٣م.

(٦) قدامة بن جعفر: نقد الشعر ص٣، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة د. ت.

(٧) أبو بكر بن الطيب الباقلاني: إعجاز القرآن ١٨١، تحقيق السيد صقر، القاهرة ١٩٥١م.

(٨) مقدمة ابن خلدون: ١٢٩٥ تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، القاهرة ١٩٦٠م.

(٩) العمدة ١/ ٩٦.

(١٠) انظر: د. علي عبد الواحد وافي، الأدب اليوناني في القديم ١٣٢، دار المعارف بمصر ١٩٦٠م.

(١١) انظر: د. نعمان القاضي، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ٣٣١-٥١٠، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م.

(١٢) انظر مثلا: د. محمود حسن عبد ربه، الحرب في شعر المتنبي ١/ ٣٨٨ - ٣٩٢ و ٢/ ١١ - ٥٤ و٢/ ١٢٩- ١٥١ و٢/ ٢١٤، دار الشروق، جدة ١٩٧٩م.

(١٣) انظر: د. أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ٦١ - ١٠٥ و٣٠٢ - ٣٢٣ و٤٠٧- ٥٢٠.

(١٤) د. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ٢/ ١٧٧ - ١٩٣ دار الثقافة، بيروت ١٩٦٢م.

(١٥) كان كافور عبدًا لحاكم مصر «الأخشيد»، وقد ارتقى عنده إلى أن صار وصيًّا على ولديه، ثم تسلّم الحكم بعد وفاته باسم ولدي الأخشيد، ثم استقل به باسمه. وتذكر كتب التراجم أنه كان ذكيًّا وحكيمًا وعادلاً وفيه تقوى وصلاح، يدعى له على المنابر في مصر والحجاز والشام، وكانت أيامه سديدة وجميلة، انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٩٩، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت.

(١٦) وهو أبـو سعيد بن عبد الله الأسـدي، وقراقوش لقبـه ويعني «العقاب». كان وزير صـلاح الدين الأيوبي، وكـان عالمًا ومهنـدسًا فـذًّا وسياسيًّا محنكًا، هـو الذي أشـار على صلاح الـدين ببنـاء قلعة القاهرة وخططهـا ونفذت بإشرافه، وكان صلاح الدين ينيبـه في إدارة مصر عند ما يخرج إلى الحروب، عرف بالصـلاح والتقوى حتى ليقول عنه ابن خلكان: «وله حقـوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين». وأما الأسـعـد بن مماتى فهـو ناظر الـدواوين بمصر، كان نصرانيًّـا فأسلم، وسعى لينال حظوة في القصر، وكـانت له ميـول نحو الفاطميين، حـاول أن يتزلف إلى صـلاح الدين بشعـره ونثره ولكن قراقـوش كشف بعض خباياه، فاغتـاظ الأسعد وخرج إلى حلب، وكتب كتابـه «الفاشوش في أخبـار قـراقرش»، ولفق عليـه حكـايـات عجيبة تجعلـه في منتهى الحمق والغبـاء والظلم. . وكـان أسلوب الكتاب مرحًا، ومما يعجب العامة، فسار فيهم سيرورة عجيبة.
انظر مثلا: وفيات الأعيان ٤/ ٩١ - ٩٧.

(١٧) انظر مثلا: معلقة زهير بـن أبي سلمى، وما قاله فيها في ذم الحرب وبيان شرورهـا ومآسيها في الحياة الجاهلية. شرح ديـوان زهير بن أبي سلمى. صنعـه أبو العبـاس ثعلب ١٩، الدار القـومية القـاهرة ١٩٦٤م.

(١٨) انظر: د. يوسف خليف. الشعراء الصعاليك، دار المعارف بمصر.

(١٩) انظر: د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني ٢٤/ و٣٢٣ ط٣، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.

(٢٠) انظـر: د. محمـد زغلـول سـلام، الأدب في العصر المملـوكي ٢/ ١٧ - ٢١، دار المعـارف بمصر ١٩٧١م.

(٢١) انظر: نص العبارة في: المبرد، الكامل ١/ ١٥ تحقيق محمد أبو الفضل والسيد شحاتة، مكتبة نهضة مصر.

(٢٢) دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٥٣٣، لجنة الترجمة والنشر. القاهرة ١٩٣٣م.

(٢٣) انظـر: أوستن داريـن ورينيـه ويلك، نظـريـة الأدب ١٩، تـرجمة محيي الـدين صبحي، دمشق ١٩٧٢م.

(٢٤) انظر: د. محمد غنيمي هلال، في الأدب المقارن، ٢١٤ ـ ٢٣٥، دار نهضة مصر د. ت.

(٢٥) انظر: السابق ١٦٧.

(٢٦) انظر: السابق ١٧١.